المنار
١٣١٥
فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب
يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب
(قال عليه الصلاة والسلام: إن للإسلام صوى وهو منارة كمنار الطريق)
(مصر — غرة جمادى الثانية سنة ١٣٢٣ — ٢ اوغسطس (آب) سنة ١٩٠٥)

تتمة ملخص سيرة الاستاذ الامام

دخوله في الماسونية — من التمهيد

كان السيد جمال الدين قد أخذ على نفسه العهود والمواثيق أن يعمل عملا عظيما ينهض بدولة إسلامية نهوضا يعيد للاسلام مجده. وكان مضطلعا بذلك إلا انه كان مستعجلا يريد أن يعمل هذا العمل العظيم ويرى أثر نجاحه وثمرة غراسه في حياته لذلك جاءه من طريق الحكومة والسلطة وتوسل اليه بالعلم فاتخذ له في مصر تلاميذ بدأ يقرأ لهم كتب أصول الدين والفلسفة حتى اذا ما وثق بهم مزج لهم السياسة بالعلم وخاف استبداد اسماعيل باشا أن يحول بينهم وبين ما يشتهون فانتظم مع مريديه في سمط الجمعية الماسونية وكان بأتحادهم رئيس محفل مصر فيه تلامذته على الخطابة والبحث في حياة الامم وموتها ونهوض الدول وسقوطها وقد دخل في هذا المحفل شريف باشا وبطرس باشا غالي وكثيرون من الكبراء والاذكياء. وكان توفيق باشا

ولي عهد الخديوية منافسا للسيد ومخذله ومكان صاحب الترجمة من السيد مكانه المعلوم فكان دخوله في الماسونية متمما لتربيته وتعليمه وصلة بينه وبين توفيق باشا وكثير من رجال مصر وسببا لبحثه في أحوال الحكومة المصرية ووقوفه على نقائصها ومساوئها وتوجهه إلى السعي في إصلاحها ومهدا له الطريق للعمل الذي قام به قبيل الثورة وبعدها على ما نقصه هنا بالايجاز وفي التاريخ الذي سنؤلفه للفقيد بالتفصيل . وقبل أن ننتقل من هذا التمهيد نقول ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ترك الماسونية من زمن طويل وقد أكثر أبناؤها من دعوته الى عاصمتها بعد رجوعه من المنفى الى مصر فلم يجب وأهدوا إليه وساطا فلم يقبله . وقد سألته عن حقيقتها مرة فقال ان محلها في البلاد التي وجدت فيها للعمل قد انتهى وهو مقاومة سلطة الملوك والبابوات الذين كانوا يحاربون العلم والحرية وهو عمل عظيم كان ركنا من أركان ارتقاء أوربا وأوربا تحافظون عليها الآن كما يحافظون على الآثار القديمة ويرونها جمعية أدبية تفيد التعارف بين الناس . وأخبرني بأن دخوله مع السيد فيها كان لغرض سياسي اجتماعي وانه قد تركها من سنين ولن يعود اليها وانها ابتذلت في مصر ابتذالا لم يكن من قبل . وأخبرني أنه أرشد مرة أحد ولاة بيروت الى إبطال محفل ماسوني علم انه يكيد للدولة العلية بايعاز بعض الدول الاوربية فهاب ذلك الوالي وظن أنه فوق قدرته ولكن الفقيد رحمه الله تعالى هداه السبيل الى ذلك وشد من عزيمته فعمل وبل كان مبدأ اتصاله مع السيد جمال الدين من الماسونية عند ما جاء الى مصر رئيس الشرق الاعظم الانكليزي وهو يومئذ ولي العهد للدولة الانكليزية فاجتمعت المحافل الماسونية حفاوة به وذكر أحد رؤسائها ولي العهد بهذا اللقب فاعترض

السيد جمال الدين وقال انه لا يسمح بأن يحتفل بأحد على أنه ولي العهد لدولة من الدول لا سيما الدولة الانكليزية التي من وصفها كيت وكيت وليس لها فضل على الجمعية الخ ما قاله ولا أذكر منه الا مثل هذا الاجمال فرد عليه بعض رؤساء المحافل وبعد مناقشة انسحب من الماسونية هو وخواص مريديه . ولما رأى بعض علماء الازهر بعد ذلك ترقي الاستاذ الامام ونفوذه في الحكومة توهموا ان ذلك بمساعدة الجمعية له فدخل كثيرون منهم فيها ومنهم من دخل بدعوة بعض أصحابه من أهلها ولم يدخل أحد منهم لأجل عمل يفيد الامة والبلاد الا جماعة السيد جمال الدين

إصلاحه في مدارس الحكومة والازهر

اذا تعهد هذا فنقول : قد عين الفقيد في أواخر سنة ١٢٩٥ مدرسا للتاريخ في مدرسة دار العلوم وللعلوم العربية في مدرسة الألسن الخديوية فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس في الجامع الازهر فبدأ في دار العلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون لانها مقدمة للتاريخ وانما غرضه بث أفكاره السياسية والاجتماعية في أذهان التلاميذ فكان يطبق ما فيها من الكلام عن نهوض الدول وسقوطها وشؤون العمران وأصوله على أمته وبين أسباب ضعفها والوسائل التي تذهب به وتعيد اليها ما فقدت من عزها ومجدها . وكان يكلف التلاميذ كتابة المقالات والفصول في ذلك فكان كل واحد يشعر بروح جديد يدب في هيكله ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده وإعلاء شأن أمته . وقد كتب رحمه تعالى في ذلك العهد كتابا حافلا في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ انتقد فيه بعض ما قاله ابن خلدون واستدرك عليه وبين ما فسحته طبيعة الاجتماع في هذا العصر

من أحكام العمران في العصور الغابرة . وكان في مدرسة الألسن آية البيان في إحياء اللغة العربية وإشراع الطريق اللاحب في التعليم ، والخروج بالطلاب من مآزق العهد القديم ، ثم ان دروسه في الازهر كانت بناء جديدا للعقائد على أسس البراهين القطعية ، وتجديدا لما بلي من سائر العلوم العقلية ، وكانت حلقة درسه في الأزهر واسعة جدا تحيط بأعمدة كثيرة وكان يقرأ في بيته درسا في الاخلاق أو السياسة لطائفة من المجاورين قرأ في ذلك كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه الرازي . فكان ذلك سبب طلبه المرة الاولى وقرأ كتاب (كيزو) في السياسة ولا أدري أتمه أم لا

كان القصد من هذه الدروس تكوين نابتة جديدة من السكان في مصر تحيي اللغة العربية والعلوم الاسلامية ، وتقوم عوج الحكومة المصرية ، فقد كانت هذه الحكومة لذلك العهد قد رثت ووهت ، ووقعت في التزع أو اوشكت ، عظم فيها سلطان الاجانب ، وأحاطت بها سيول الفتن من كل جانب ، ومنيت الامة التي عمدها بالتربة والمسغبة ، وضربت عليها الذلة والمسكنة ، ذلك بما اسرف اسماعيل باشا في الضرائب والمكوس ، وتعذيب الاجساد والنفوس ، فاما آثار اسماعيل باشا في البلاد فلا يزال الكهول والاشياخ يحدثون بها الشبان والغلمان ، واما ما فعله السيد جمال الدين ومريده الشيخ محمد عبده من السعي في إصلاح الحكومة في الحال ، وتربية الرجال لأجل الاستقبال ، فلا يعرفه الا من كان يعمل معهما ، ويتلقى عنهما ، ومن شاء من أهل هذه الديار ، أن يروي شيئا من تلك الأخبار ، فليراجع من بقي من تلامذتهما الاخيار ، كالشيخ عبد الكريم سلمان وسعد بك زغلول وابراهيم بك اللقاني وحفني بك ناصف ومحمد بك صالح وسلطان

افندي محمد وغيرهم. ولو طال العهد على عملهما لتم لهما المراد ولما حدثت الثورة العرابية، ولكن خانهما الزمان، وما قدر كان.

كان من عمل السيد جمال الدين ومريديه أن اتصلوا بولي العهد توفيق باشا الخديو السابق واتفقوا معه على تغيير شكل الحكومة واصلاح شؤونها فكان يعد السيد والشيخ من أقوى أنصاره وأوليائه ولما اتهى الخليف والجور والخلل بخلع اسماعيل باشا ونصب توفيق باشا أميرا على مصر في رجب سنة ١٢٩٦ طفق السيد جمال الدين يطالبه بانجاز وعوده وأولها إنشاء مجلس نواب للحكومة وجعل الوزارة مسئولة وظهرت طلائع الاصلاح على يده ولكن وجد من الواشين من غير قلبه على السيد والشيخ وأوهمه انهما يسعيان في تقييد سلطته أو إزالتها فأمر بنفي السيد فأخذ من داره ليلا في عربة مقفلة وليس عليه غير قميص واحد وأرسل في قطار خاص الى السويس ومن هناك ذهب الى الهند وأمر بنزل الشيخ من مدرسة دار العلوم ومدرسة الالسن وبان يقيم في قريته (محلة نصر) لا يفارقها الى بلدة أخرى وخاصة عاصمة البلاد والمدن الكبيرة كالاسكندرية وغيرها. وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٩٦

عمله في المطبوعات والحكومة

وفي أواسط سنة ١٢٩٧ توجهت عناية رياض باشا الى تحسين كتابة الجريدة الرسمية وجعلها مفيدة مرغوبا فيها من الناس فاستشار الشيخ حسينا المرصفي ومحمود باشا سامي البارودي كلا على حدته فأشار برأي واحد كأنهما تواصيا به وهو جعل الشيخ محمد عبده محررا فيها ففعل بعد ان استرضى توفيق باشا فصدر الامر العالي بتعيينه محررا ثالثا واتظر رياض باشا

مدة من الزمن فلم ير تغييرا يحمد . ثم إنه كتب من الاسكندرية بأمر قلم المطبوعات في مصر بأن تكتب مقالة في مالية مصر تلم بشيء من تاريخها الماضي وحالها الحاضر الذي وضع له قانون التصفية وان تنشر هذه المقالة في أول عدد يصدر من الجريدة الرسمية وكان قد بقي له يوم واحد فخاص كتاب الجريدة وحاروا وأرسلوا الى صاحب الترجمة من أحضره من الازهر وكلفوه كتابة المقالة فكتبها في مجلسه ونشرت فلما قرأها رياض باشا أعجب بها أشد الاعجاب وسأل عن كاتبها فقيل له هو فلان فزاد عجبه أن وجد في الازهر شاب واقف على تاريخ المالية في مصر عارف بجميع شؤونها قادر على بيان ذلك والافصاح عنه . وفي أواخر هذه السنة طلبه رياض باشا وسأله عن رأيه في اصلاح الجريدة فبين له رأيه في تقرير خاف فأمر بأن تؤلف لجنة للنظر في التقرير من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير وان توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة فكان ذلك وعين الفقيد رئيسا لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية فاختار لها من المحررين المهرة الشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ سعد زغلول (هو سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف لهذا العهد) والشيخ محمد وفا (رحمه الله) وهم ممن كانوا يحضرون درسه ودروس السيد جمال الدين ويرعوا في الكتابة معه على يد السيد . ثم ماذا كان من شأنه ؟ كان مالم يكن يخطر على قلب بشر وهو أن رئيس التحرير للجريدة الرسمية صار مهيمنا على الحكومة والامة ينتقد الاعمال والاقوال ، وينتقل بالناس من حال الى حال ،

وضع لائحة أوقانونا لقلم المطبوعات أجازه وأنفذه رياض باشا فكان

من أحكامه ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها ومجالسها في العاصمة وغيرها ملزمة بأن تكتب الى ادارة المطبوعات تخبرها بما عملت فأتمت وما شرعت فيه وكذلك المحاكم ترسل اليها نتائج أحكامها ، وان لادارة المطبوعات الحق في انتقاد كل ما تراه مستمدا من الاعمال ، وأن لها حق المراقبة على الجرائد الوطنية والاجنبية التي تصدر في القطر المصري وان تبحث عن حقيقة ما تقوله في رجال الحكومة وأعمالها وعلى الحكومة مساعدتها على ذلك بمعنى أنها اذا نشر في بعض الجرائد ما ترتاب ادارة المطبوعات فيه فإن لها ان تسأل المصلحة أو الادارة التي يسند اليها ذلك عن الحقيقة بواسطة نظارة الداخلية ان لم يكن ما نشر مسندا الى النظارة والاستفهام مباشرة فان كان حقا ما نشر في الجريدة وجب على الحكومة مؤاخذة من نسب اليه الذنب وذكر ذلك في الجريدة الرسمية وان كان كذبا طولب مدير الجريدة باثباته والا انذر واذا تكرر إنذار جريدة ثلاث مرات يمنع إصدارها ألبتة أو الى الأجل الذي تراه الادارة . وان من حق رئيس تحرير الجريدة الرسمية أن يجعل فيها قسما غير رسمي ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعا من المقالات الادبية (ويدخل في الادبية الاجتماعية والاقتصادية وما أشبه ذلك) وقد أجاز هذا القانون واتخذه رياض باشا لما له من العناية بالاصلاح ولثقته بكفاءة صاحب الترجمة وغيرته وإخلاصه في الخدمة العامة وإن في هذا لعبرة لأولي الالباب ـ صاحب عمامة أزهرية يدخل في حكومة مطلقة بعيدة في أعمالها عن رجال العلم والدين فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة على نظارات الحكومة ومجالسها وعما كمها ومصالحها فيصلح لهم ما يكتبون ، ويرشدهم الى اصلاح العمل فيما يعملون ، ثم يشرف من نافذة اخرى على الامة فيقوم من اخلاقها ،

ويصلح مافسد من عاداتها بالوعظ الصحيح ، والارشاد الحقيقي ، ويطل من نافذة ثالثة على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير ويربيها على الصدق في القول ويجعل للصادق منها سلطانا نصيرا ، وتأثيرا مأثورا ، يالها من عمامة شرفت برأس صاحبها حتى حسدتها الطرابيش ، وهابتها التيجان والبرانيط ، ونذكرهنا على سبيل الفكاهة ان بعض الكبراء رغبوا الى الاستاذ الامام في ذلك العهد أن يستبدل الطربوش بالعمامة لان صاحب العمامة لا يرتقي الى مراتب الرؤساء والنظار كصاحب الطربوش فأبى عليهم ذلك فأرادوا الاستعانة عليه برياض باشا فأوهموه انه يميل الى لبس الطربوش ولكنه لا يلبسه الا بأمره فسأله فظهر له انه لا يرغب في ترك زيه وأنه اذا ألزمه بذلك إلزاما فانه يمتثل مادام في عمل الحكومة فاذا خرج من عمله عاد الى عمامته فقال رياض باشا كلا اني لا أرضى لك الطربوش لانني أحب أن يعلم الناس انه يوجد تحت العمائم من العقول والافهام مثل مايوجد تحت الطرابيش وغيرها . فلله در رياض باشا وجزاه الله الخير فانه هو الذي أحضر السيد جمال الدين ومكن له في أرض مصر وهو الذي كان السبب في ظهور مواهب الشيخ محمد عبده في أول نشأته حتى انه حكمه في انتقاد نظارة الداخلية وهو أحد العمال المتوسطين فيها

كان من أثر مراقبة ادارة المطبوعات للجرائد ان اجتهد أصحابها في اتقاء المحررين وقد أنذر عامله الله تعالى باحسانه مدير جريدة شهيرة بمنع جريدته اذا لم يختر لها محررا صحيح العبارة في مدة عينها فعمل ذلك ذلك المدير . ولم يكن يأذن بطبع كتاب من الكتب الضارة . وكان من أثر انتقاد كتاب الحكومة أن نبه شأن المجيدين منهم وفتحت مدارس ليلية

لتعليم المقصرين وتبرع تعمده الله برحمته بقراءة درس في بعضها . فهذا هو مبدأ النهضة القلمية الحقيقية في مصر فالفضل فيها للسيد جمال الدين وللشيخ محمد عبده رحمهما الله تعالى

وأما انتقاد أعمال الحكومة فكان من أسباب تحريها الحق والعدل والاجتهاد في اصلاح كل نظارة وقد عني الفقيد يومئذ بنفسه في انتقاد نظارة المعارف ومثل مساوي التعليم والتربية في مدارسها شر تمثيل فضاق ذرع ناظر المعارف لذلك العهد فلاذ برياض باشا كيما من الجريدة الرسمية فقال له رياض باشا ان كان ما كتب حقا فلا وجه للشكوى منه وان كان باطلا فعليك أن تبين ذلك بالدليل والبرهان وفلان ينشره في الجريدة الرسمية نفسها فانه لا يقصد بما يكتب فيها الا المصلحة فسكت الناظر واجما

عمله في مجلس المعارف الاعلى

اقتنع رياض باشا بما في نظارة المعارف من الخلل وعلم ان ما يكتب في الجريدة الرسمية حق فذاكر الفقيد في ذلك وفي وسائل تلافيه فعرض عليه ان يكون للمعارف مجلس أعلى يكون له الحكم الفصل في ادارة المعارف العمومية ويكون الناظر منفذا لما يقرره فانفذ ذلك رياض باشا وجعل صاحب الترجمة عضوا في هذا المجلس فكان له فيه الاقتراحات النافعة ولولا كثرة ما جعل فيه من الاعضاء الاجانب الذين كانوا يعارضون المشروعات النافعة للبلاد ثم حدوث الثورة لارتقت معارف البلاد في ذلك العهد ارتقاء عظيما . صدر الامر العالي بتشكيل هذا المجلس في ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ وقد تألفت منه لجنة للنظر في إصلاح طرق التعليم والتربية في جميع المدارس وكان الفقيد الكاتب العربي لجلساتها وكان

له فيها الآراء الصحيحة والحجج القيمة على مايطلب من الاصلاح

اذكر من اقتراحه شيئا سمعته ولا ادعي انني أحطت به كل الاحاطة وهو انه اقترح مرة على المجلس ان يطلب من الحكومة مبلغا عظيما من المال يوزع على المدارس الاجنبية مكافأة لها على خدمة العلم ونشره في البلاد فهش الاعضاء الاوربيون لهذا الاقتراح وعارض فيه بعض الاعضاء الوطنيين ووافق الآخرون الذين مرفوا مايرمي اليه المقترح فتقرر بأكثر الآراء . ثم انه اقترح في جلسة أخرى أن يقرر المجلس وجوب جعل المدارس الاجنبية تحت مراقبة نظارة المعارف لينظر مقتضى النظارة في نظام التعليم فيها فهش الاعضاء الوطنيون لهذا الاقتراح وعارض فيه الاجانب فأقام عليهم الحجة بأن جميع الدول الاوربية تراقب جميع المدارس التي تأخذ منها إعانة وتفتش مدارسها اذ يجب على الحكومة أن تعلم انها لاتضيع دراهمها بل تنفقها فيما ينفع بلادها . فقال بعضهم ان هذا قول حق وانما نعارض الآن في هذا الاقتراح لاننا نعلم أن المعارف في مصر منحطة وانما اجتمعنا لترقيتها وأرباب المدارس الاجنبية مرتقون في العلوم والمعارف ولا يصلح السافل للاشراف على من هو أعلى منه ولا المنحط للحكم على المرتقي . فقال الفقيد رحمه الله تعالى كان يصح هذا الدفاع لو لم تكن أنت ورفاقك من أعضاء مجلس المعارف المصري فاذا كان الطلب في نفسه حقا وعدلا فلا يصح أن يرفض لان المعارف العمومية لم ترتق في البلاد المصرية لاجل عدم ارتقاء المعارف وانتظام المدارس لاينافي وجود أفراد من الموظفين في النظارة من الاوربيين أو المصريين المتعلمين في مدارس أوربا العالية يصلحون لتفتيش المدارس الاجنبية : فنهضت حجته وتقرر اقتراحه .

وانها لأمنية يلحن على ذكرها السلطان والامير ، ويسيل لتوهمها لعاب الناظر والوزير ، ولكن نقف دونها الآمال حسرى ، وتنحني أمامها العقول حيرى ، وتكبو في غاياتها جياد السياسة ، ويصفر من الطمع فيها أهل الرياسة ، ثم تسمو اليها تلك الهمة ، وتستنزلها من أعلى القمة ، ولولا الفتنة العرابية لجعل لنا ذلك المضو أو الكاتب ، سيطرة على مدارس الاجانب ، على ما كان لهم في ذلك الزمان ، من النفوذ والسلطان ، فكيف لو كان ذا منصب أعلى ، ونفوذ أقوى ،

(دعوته نظارة الاوقاف الى الاصلاح)

كان لنظارة الأوقاف من حفظ إرشاده نضنا الله بطوله وآثاره نحو ما كان لسائر النظارات ومصالح الحكومة وكان من تأثير إخلاصه أن عزمت هذه النظارة يومئذ على عمل جليل وهو أن تجعل دار الكتب المصرية (الكتبخانه) ومدرسة دار العلوم بالازهر وتوسع دائرة المدرسة بحيث تدرس فيها جميع العلوم ويبلغ عدد طلابها ٠٠٠ طالب ويكون المتخرجون فيها هم المقدمين في أعمال الحكومة ولو تم هذا لكانت الاوقاف ينبوع الحياة لهذه البلاد . ولكن حال دون هذا ودون ما كانت الحكومة شرعت فيه من الاصلاح الاداري والقضائي والعسكري تلك الفتنة المشؤمة

ثورة العرابية

علم مما تقدم ان البلاد المصرية كانت في أواخر امارة إسماعيل باشا في ظلمات بحر من الظلم لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ظلمة الجور والظلم وظلمة الفقر والفاقة وظلمة الشرور وفساد الاخلاق والآداب وظلمة تحكم الأجانب وسيطرتهم

على الحكومة بحجة المراقبة المالية لمالهم من الديون على اسماعيل باشا وسلطتهم على الرعية التي أغرقها في الاستدانة منهم كثرة الضرائب والجزى، وكثرة الضرب وسوء الجزاء . وكان يظهر من غمرات هذه الظلمات بصيص من النور في مواضع مختلفة لمعت جذوة منه في الازهر فنفخ الشيخ عليش نفخة أخمدتها ولكنها ما أطفأتها ثم كان هذا النور يظهر في معاهد خاصة فتمتد اليه الابصار، ويسير في ضوءه من سار ، حتى أشرق وتلألأ في ادارة المطبوعات، وانتشر نوره في سائر الجهات، وكان ما كان من أخذ الحكومة والناس بوسائل الاصلاح ومقاصده فرحين مستبشرين بأميرهم الجديد (توفيق باشا) لفتته عن أموالهم ، ورغبته في إصلاح حالهم ، وبوزيرهم العامل المخلص (رياض باشا) واذا بنا جم الفتنة قد نجم ، وطائر الشر قد وقع ، إذ هب ضباط الجيش من المصريين يطالبون بحقوقهم ، وأيديهم على مقابض سيوفهم ، وتلك هي مايسمونه بالثورة العرابية

لايهمنا في هذا المقام خبر هذه الثورة ولا تاريخها وانما يهمنا أن نبين في تاريخ أستاذنا انه كان كارها لها منددا بزعمائها وهو بينهم لانه كان يعلم انها تحبط عمله الذي مضى فيه ، وكل إصلاح تعمله الحكومة أو تنويه ، وانها تمهد للأجانب سبيل الاستيلاء على البلاد بل كان هو واستاذه يتوقان ذلك من سيرة اسماعيل باشا وقد صرح السيد بذلك في خطبه وفي بعض ما كتب وطبع لذلك العهد وحاول أن يحول دون ما يخشى ويتوقع بالسعي في الاصلاح فليس مانقوله عن أستاذنا من أنه كان لايجهل خطر الثورة بالدث والرجم بالغيب ، بل هو قول مؤيد بالدلائل وثابت بالرواية الصحيحة عنه وعن الصادقين من العارفين بما كان .

كان يعتمد على زعماء الثورة بالقول خطابة وجدالا في اندية بهم ومعارفهم وبالكتابة في الجريدة الرسمية حتى أرسل اليه عرابي مرة من يهدده ويقول انك أهنت الشرف العسكري بما كتبت عن الجيش ورؤسائه . أرسل اليه ضابطين الى قلم المطبوعات من الداخلية فطردهما وهددهما بالضرب اذا هما لم يخرجا . وكان عرابي وأعوانه ينفضون من المجلس يدخل فيه

زار مرة طلبه باشا في أيام عيد الفطر فاذا بعرابي وأعوانه جلوس يتكلمون في الاستبداد والحرية والحكومة المطلقة والحكومة النيابية الدستورية واتفقوا على أن الأمن على الارواح والاموال ، وصعود الامة في مراقي الكمال ، من آثار الحكومة المقيدة بلا جدال ، وان هذا التحويل قد آن في مصر أوانه ، وأدركها إبانه ، فعارض الاستاذ في ذلك وقال ان أول مايجب ان يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالمزية ، وحمل الحكومة على العدل والاصلاح ومنه تعويدها الاهالي على البحث في المصالح العامة واستشارتها إياهم في الامر بمجالس خاصة تنشأ في المديريات والمحافظات ، وليس من الحكمة أن تعطى الرعية مالم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بماله قبل بلوغ سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد. فطفق عرابي يجادله هو وأحد أساتذة المدرسة الحربية وكان مما احتج به الفقيد عليهما أن الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في ادارة شؤونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى فليطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع لانه ليس تصوير الاستعداد الامة ومطلبها ويخشى ان يجر هذا الشغب على البلاد احتلالا أجنبيا يسجل على مسببه اللعنة الى يوم القيامة ،

عند ذلك أبدى المجادل نواجذه لغير تبسم وقال أرجو أن لا استحق هذه اللعنة وليس الجند هو يطلب مجلس النواب ولكنه مؤيد لطلب أعيان البلاد ووجهائها، ثم أسرّ الى الاستاذ ان سلطان باشا جمع الاعيان لهذا الطلب. وقد كتبنا في ص ٥١٢ من مجلد المنار الرابع ردا على صحافي عرض بأن الاستاذ الامام كان من أركان الثورة العرابية نذكره هنا وهو

« عرض هذا الانفجاني المتذمع بذكر الفتنة العرابية وياليته كان يعرف حقيقة الفتنة العرابية ويعرف المغرورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال فهو لا يعرف ولا يجب أن يعرف واذا أحب فليسأل العارفين، وليراجع كتابة الكاتبين، وعند ذلك تظهر له مزية من عرض به ان كان من المنصفين، يظهر له أن هذا الرجل الكبير العقل البعيد الرأي كان ينتقد أعمال عرابي ومشوره في جريدة الوقائع الرسمية في القسم الادبي منها على حين ترتعد فرائص قصر الخديوية من عرابي وحين يرى هذا المنتقد الشجاع ان رئيس النظار ينزل من ديوانه بأمر عرابي مكرها ويسمع من أتباعه ما يكره. وتظهر له تلك الخطبة التي خطبها هذا الرجل العظيم في زعماء الثورة العرابية عند ما ألزموه بحضور مجتمعهم وان يقوم فيهم خطيبا. ماذا كان موضوع خطبته؟

« كان موضوعها بيان تاريخي بأن المعهود في سير الامم ومن الاجتماع أن القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها والزامها بالشورى وبالمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام، وانه لم يعهد في أمة من أمم الارض ان الخواص والاغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم

بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف ومشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك فكيف حصل في هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع ؟ (قل) فهل تغيرت سنة الله في الخلق وانقلب سير العالم الانساني أم بلغت الفضيلة فيكم حدا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتساووا الصعاليك حبا بالعدالة والانسانية ؟ أم تسيرون الى حيث لا تدرون ، وتعملون مالا تعلمون ؟ : وأمثال هذا الكلام الذي فهمه بعضهم فطفقوا ينفضون رءوسهم وعلا على أفهام الاخرين

«هذا ماقاله الشيخ محمد عبده في أعظم مجتمع لرؤساء العرابيين ولو كانوا يعقلون لرجعوا به الى رشدهم ولكن الامة لم تكن استعدت لفهم ارشاد هذا الحكيم ولما تستعد الى الآن . ولهذا الاستاذ ان يتمثل بقول ابن الفارض رحمه الله تعالى

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الاهواء عمت فأعمت

هذا ما كتبناه منذ أربع سنوات كاملة . ولا حاجة الى كثرة الشواهد والوقائع في هذه السيرة المختصرة

ولا يلتبس على القارىء معارضة الاستاذ الامام للعرابيين في مشروع مجلس النواب وتقييد السلطة مع أنه كان الداعي الثاني الى ذلك بعد أستاذه وأول من تلقى ذلك عنه فانه كان يحاول أن يكون ذلك برضى الامير وحكومته لا بالخروج عليه وأن يكون في البداية من قبيل التمرين والتمويد مقرونا بالتربية والتعليم الى أن تبلغ النابتة الجديدة أشدها وتصل من طريق الحكمة الى رشدها وقد رأيت كيف كان التوسل منه ، فيما

رويناه لك عنه، وهو لم يفارق القوم المطالبين بالصلاح عند مهب الفتنة، ويلجأ الى قصر الامارة أو يتفيأ ظلال المزلة، لانه في فكره وسط بين الطرفين، وفي عمله بين المصلحتين، وقد قال لعرابي مرارا كثيرة عليك بالهدوء والسكينة وأنا أضمن لك أكثر مما تطلب في بضع سنين ونهاه بعد ذلك عن محاربة الانكليز

اثبت الثورة بالاحتلال الانكليزي وقبض على زعمائها وألقوا في غيابة السجن ليحاكموا فيقتلوا تقتيلا . وجعل التقييد منهم لامر ما وصدر الامر بأن تكون محاكمتهم بالقانون الانكليزي وعين لهم محام انكليزي جاءهم فسمع منهم وكلفهم ان يكتبوا دفاعهم بأيديهم كل يكتب عن نفسه، ولا يطمن في غيره، فلم يرق كتابة أحد ما تقوم به الحجة، وتقعد به التهمة، ويدل على الغوص في أعماق الحوادث، والاحاطة بما لها من الأسباب والنتائج . الا ما كتبه وما قاله فقيدنا بالامس، وقد زاد المحامي على بيان ذلك ان اشعره بالخفايا، وأطلعه على ما في زوايا القصر من الخبايا، كقوله ان الحاشية خاطبت محافظ الاسكندرية بلسان البرق بكذا في يوم كذا وعدد كذا بأن يفعل كيت وكيت . وأعطاه من المستندات ما يثلب وجه المسألة، ولا ترضى إظهاره السياسة، وسنشرح ذلك في تاريخ التقييد بالتفصيل . حكم على عرابي ورفاقه المعروفين بالنفي الابدي وعلى صاحب الترجمة بالنفي ثلاث سنين وثلاثة أشهر . وقد كان النفي بلاء وشقاء على كل المنفيين حاشا الامام فانه كان رحمة له ونعمة عليه ومزيدا في كمال علمه وتربيته وسببا لنشر علمه في بلاد كثيرة . ذلك انه كان من أهل الاخلاص والتقوى فجعل الله تعالى له من كل ضيق فرجا ومخرجا بل بدل له النقمة نعمة والسيئة حسنة فكان مبدأ حياة جديدة له نبينها فيما يلي هذا